مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 02، جوان 2022، صص: 317- 330

تاريخ الاستلام(2021/12/31)تاريخ القبول (2022/06/09)تاريخ النشر (2022/06/30)

النقد الأدبي في كتابات أبي القاسم سعد الله

Literary Criticism in the Abu Al-Qasim Saad Allah's Writings

فاطمة حجاري

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، وحدة تلمسان (الجزائر)،

hadjarifatima07@gmail.com

ملخص:

تنطلق هذه الورقة البحثية من إيمان تام بتعرض الجهود النقدية لشيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله لكثير من الإجحاف والتعتيم، ذلك أن للرجل مو اقفه المهمة من قضايا أدبية جوهرية، عبر عن رأيه فيها بموضوعية وعلمية وحس قومي وطني عالٍ، كنحو موقفه من الأدب المكتوب بالفرنسية، وإثارته لقضية الأدب القومي، وتركيزه على مهمة الأدب والأديب حين شرحه لمفهوم الالتزام وغيرها من القضايا ..... كما أن إسهام سعد الله في التأريخ للأدب الجزائري إسهام نوعي بحيث أنه أماط اللثام على الكثير من الأسماء والنصوص التي تشكل حقبة مهمة من تاريخ الجزائر الأدبي والفكري، كان يراد تغييبها عن الذكر والتقييم، زد على أنه تميز بمنهجيته العلمية في النقد، فكان له معاييره وأسسه العليمة في تقويم الأعمال الأدبية. على أننا شهدنا ونحن نشتغل على النقد الأدبي في كتابات أبي القاسم سعد الله تفرق جهوده النقدية وتوزعها وتشتتها في كتب مستقلة وفي ثنايا تآليف ومقالات، وهي أعمال ممتدة في الزمن تعكس ثقافة جيلين أو أكثر من أبناء الجزائر، لذا هي مما يجدر العناية به جمعا وتمحيصا وقراءة عاكسة بذلك باكورة من باكورات التأليف النقدي في الجزائر كان الشيخ أبو القاسم سعد الله حامل لوائها .

كلمات مفتاحية: النقد الأدبي؛ أبو القاسم سعد الله؛ الأدب الجزائري؛ تاريخ الأدب؛ الأسس النقدية؛ القومية.

المؤلف المرسل: فاطمة حجاري ، **الايميل:** hadjarifatima07@gmail.com

Abstract:
There has been a lot of unfairness and denial towards the efforts of sheikh historians Dr. Abu Al Qassim Saad Allah. Important stances on key literary topics, such as his view on French literature, enthusiasm for national literature and attention on the work of literature when articulating concepts like commitment, were also taken. To the history of Algerian literature, Saad Allah's contribution is so valuable that it has unearthed a slew of previously unknown authors and works that represent an important period in Algerian literary and intellectual history. His scientific method of criticism and evaluation of literary works are what set him apart from others. The critical work of Abu Qassim Saad Allah, on the other hand, has been divided and disseminated in independent books and articles that span generations of Algerian culture. As a result, it is worth looking after, scrutinizing, and reading together, as it represents the first of Algeria's critical writings, of which Sheikh Abu Qassim Saad Allah was the bearer of loyalty.
Keywords: Literary criticism, Abu Qassim Saad Allah, Algerian literature, history of literature, critical foundations, Arabic poetry

1. مقدمة:

شُغف أبو القاسم سعد الله بالأدب و هيمن على عقله لقدر مهم من الزمن، فشغل وقته بالإدمان والاستزادة من لذَّة القراءة المتواصلة، التي جعلت منه فيما بعد سعد الله العالم المحقق، والباحث الأكاديمي الموسوعي، وهو قبل أن يصل إلى هذه المكانة العلمية، سار أشواطا مهمة في التجربة الأدبية، فكان في أواخر الأربعينات شاعرا مغردا ينافح عن وطنه وحريته، ثم منحه جامع الزيتونة فرصة للظهور والبروز، فتميَّز بين أقرانه بحس أدبي راق وبقدرات لغوية هائلة جعلته يجد مكانا له بين مثقفي مصر وأدبائها حين ارتحل إلى دار العلوم، وهو في كل هذا يتقلب بين فن وفن من مسرح وقصة وشعر تقليدي وشعر حر، يتقلب قارئا متفحصا وناظما مجيدا، ثم صاحب موقف ونظرة تحسن تقييم الأعمال الأدبية وتذوقها .

لقد شغل سعد الله الباحثين من بعده بتتبع الجوانب العلمية في شخصه رحمة الله عليه، وجانب اشتغاله بالأدب ونقده واحد من هذه الجوانب، إن الممارسة النقدية للأدب تعد شكلا من أشكال الرقي في التعامل مع الإبداع، ولقد حدد أحد نقاد العرب القدامى مهمة الناقد بتمثيل دقيق، في رواية ترويها كتب الأدب «قيل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه، فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك. قال له: إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف إنه رديء، فهل ينفعك استحسانك إياه. »[1] ثم إن أبين ما في مهمة الناقد التوسط بين الأديب والقارئ، إنه يخدمهما بما لا تحتمل معه كلمة الخدمة من تقليل الشأن، إنه يصل بين الطرفين، ويعقد روابط التفاهم والألفة والحب .... وليس هذا بقليل لأنه يكوِّن وإياهم مادة المجتمع ومظهرا من مظاهر الحضارة ووسيلة من وسائل الحياة.[2]

إنه يخدم القارئ بأن يوفر عليه الوقت والجهد والمحاولة والخطأ بما يختار له من النصوص ويرشده إلى ما تحسن قراءته ويدله على عناصر الجمال ليزداد فائدة ومتعة، وكثيرا ما يحسب القارئ نفسه قادرا على استيعاب النصوص المعاصرة منطلقا من لغتها المعاصرة وموضوعاتها المعاصرة، وحسبانه غير صحيح لأن المسألة ليست مسألة لغة وموضوعات وإنما هي مسألة إدراك ما وراء ما يبدو سهلا.[3]

ونحن إذ نتفحص أعمال سعد الله نجده ينوء بهذه المهمة، فقدَّم على سبيل المثال إشادة مهمة، وتنبؤا بنجاح ديوان ألحان الفتوة لمحمد الصالح رمضان، [4] ثم هو يوجِّه القارئ لقراءته حين يبدي إعجابه بالكتاب ويصفه بأنه لاق الجحود والنكران .[5] ونجده يقدم وصفا مجملا لكتاب حمار الحكيم بقوله «إنه طافح بالجمال والنور والحياة».[6] ويقدم توصيفا دقيقا لشعر كل من أحمد معاش الباتني وعبد الكريم العقون، بقوله «شعرهما به دفء وانطلاق وروعة، وإن لم تبلغ درجة الإبداع، غير أنها تبرهن في غير تحرُّج على أن تلك الحركة الشعبية النزَّاعة إلى التجديد، لم تكن منعزلة أو قاصرة على مسايرة الواقع بما فيه من مآس وأفراح، فكيف يصح أن نقول أن شعرنا لا يمثلنا مهما تواضع وحمل الناموس على المغاوير» .[7]

هذه بعض الملاحظات الدقيقة التي قدمها الناقد سعد الله لأعمال أدبية تتوزع بين شعر ونثر، وهي ملاحظات يوجه بها القارئ وينمي بها حسَّه الأدبي، ثم هي صادرة من ثقة لا محالة، إن شخصية الناقد قد اكتملت عند سعد الله، بما يطرح السؤال كيف تكونت النظرة الناقدة الفاحصة عند سعد الله، وما المؤهلات التي توافرت فيه حتى خوَّلت له قراءة الأدب قراءة مقوِّمة؟

2.المؤهلات النقدية للأستاذ أبو القاسم سعد الله:

النقد في ذاته قديم قدم الإنسان الذي خُلق نزَّاعا إلى الكمال، ومن ثم منقادا بطبعه إلى إدراك ما في الأشياء من وجوه كمال يستريح إليها، ووجوه نقص يسعى إلى كمالها.[8]

فالنقد له شكل فطري، تتفاوت حظوظ البشر من امتلاكه، وهذا حيِّز الموهبة، وهو في عرف الدارسين لا يكفي لخلق عمل مهم أو خوض تجربة نقدية موضوعية وذات عمق وقيمة، لذلك لابد للناقد من أن يتسلح بإحدى الذخيرتين: الذوق والثقافة، قبل أن يتصدى للعمل الفني بالنقد أو الحكم عليه أو أن يجمع بينهما.

والذوق من أساسيات النقد الأدبي ومن معاييره المهمة التي تعتمد اعتمادا كبيرا عليه، ويقسم الآمدي (ت371هـ) الذوق إلى ثلاثة أقسام: * الطبع هو ما طبع عليه الإنسان وفطر. والطبع: الطبيعة والسجية. * الحذق: وهو ما اكتسبه الإنسان بالدربة والمران ودائم التجربة وطول الملابسة. * الفطنة: وهي في اللغة كالفهم، وضد الغباوة، وهي هنا الجمع بين الطبع والحذق، والناقد الفطن أقدر على التمييز والحكم من الناقد المطبوع أو الناقد الحاذق [9].

فينبغي أن يمتلك الناقد ابتداء هذه الملكة والقدرة النقدية الناتجة عن الاستعداد الفطري، فالذوق هو ذلك الاتجاه الذي يعتمد على ميول الإنسان الفردية في حكمه على العمل الفني من خلال إدراك جوانب الجمال لهذا العمل دون تأثر بعوامل خارجية مهما كانت.[10] ونعني بذلك إصدار الحكم على العمل الفني من خلال الذوق الخاص دون الاعتماد على المقاييس النقدية، ودون التأثر بالمدارس النقدية.[11]

لقد أدرك الأدباء هذه الصفة في أبي القاسم، لذلك ظلوا حريصين على معرفة رأيه فيما يكتبون، فقد نقل لنا إصرار الأديب أبو العيد دود على تمرير كتاباته على العين الفاحصة لشيخ المؤرخين، ينقل لنا الشيخ أبو القاسم ذلك بقوله «لطالما قلت لدودو، أني قد انسحبت من نادي الأدب ودخلت أسرة التاريخ، ولكنه يرفض ذلك، أو لا يصدقه».[12] ثم ها هو يصف نقده لمسرحية التراب لدودو بأنه سيكون ذاتيا إلى حد كبير، ناتجا عن إحساس شخصي إزَّاءها، وليس عن ثقافة أدبية ومسرحية بالذات. [13] وبالرغم من ذلك كانت نظرته لذلك العمل الأدبي نظرة المتمرس ذو الذوق الرفيع.

1.2 الثقافة:

تعد الثقافة من أهم أدوات الناقد، ونعني بها تلك المعرفة التي يحصل عليها الناقد من خلال دراسته وتجربته وخبرته ودربته وممارسته وسعة اطلاعه على المدارس والنظريات والاتجاهات والثقافة المحيطة بالأعمال المراد نقدها ومعايشة تلك الأعمال والأعمال المشابهة لها، إلى جانب معرفة العلوم المساعدة التي قد تتصل أو تضيء جوانب غامضة من تلك الأعمال ناهيك عن ضرورة الوقوف على آراء السابقين والمعاصرين.[14] وقد نبَّه العلماء على الاعتداد بالطبع و الذكاء وضرورة إضافة الثقافة الواسعة. يقول الجاحظ: « طلبت علم الشعر عن الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يحسن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة، فوجدته لا ينقل إلا فيما اتصل بالأخبار، وتعلق الأيام والأنساب فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب: كالحسن بن وهب و محمد بن عبد الملك الزيات».[15] وقد حاول بعض الدارسين تحديد ثقافة الناقد في ثلاث مجالات من المعرفة: المجال اللغوي، المجال الأدبي، المجال العام.

*المجال اللغوي: ونعني به تمكنه من ناصية اللغة، فيكون على اطلاع مهم على أساليب الكلام، مُلمًّا بقواعد اللغة وضوابطها، وإن أولى خطوات اكتساب هذه المعرفة حفظ كتاب الله عز وجل، وقد تحقق ذلك للأستاذ سعد الله، إذ حفظ القرآن الكريم والمتون في مسقط رأسه، ثم التحق بجامع الزيتونة وتحصَّل منه على شهادة الأهلية. [16]

وفي قراءاته النقدية الكثير من الملاحظات التي تعكس قدراته اللغوية الممتازة فنجده ينبه حوحو في أكثر من موضع إلى أخطاء لغوية وقع فيها، من ذلك تصحيحه لعبارة دودو في حمار

الحكيم، "يقول الأستاذ ولأني كلما وضعت برنامجا إصلاحيا إلا وقام بإفساده عليَّ" يعلق سعد الله " هذا غلط لغوي محض لأن جواب كلما لا يقترن ب(إلا) لتناقض في المعنى سلبا وإيجابا والقرآن هو الحجة، يقول ﴿**كلما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلودا غيرها**﴾سورة النساء: الآية 56، ويقول ﴿**كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله**﴾ المائدة : 64، وغيرهما كثير". [17]

2.2 المجال الأدبي :

وأما ثقافة الناقد الأديبة فالمراد بها أن يعرف الناقد عصور الأدب معرفة كاملة وخصائص كل عصر، وأهم أعلامه البارزين من الشعراء والكتاب والأجناس الأدبية التي شاعت فيه...وأن يعرف أثر الزمان والمكان في ثقافة الشاعر والكاتب، ونشأة كل فن أدبي وتطوره على مر العصور.[18]

وفي هذا المقام يقول الناقد سعد الله عن نفسه «كما قرأت جبران خليل جبران كل كتبه تقريبا، ثم توالت اهتماماتي بالشعر المهجري، وبشعر مدرسة أبولو، خصوصا شعر أحمد زكي أبو شادي، وتابعت معركة القديم والجديد في مصر على صفحات الرسالة والثقافة وغيرهما». [19] كما عرف عنه امتلاكه لحافظة قوية أهَّلته لحفظ أغلب قصائد المتنبي.[20]

وعن معرفته لمدارس الأدب وقضاياه نجده يقر بأن الأحكام النقدية الجيِّدة أو الصَّائبة لا تصدر إلا من ناقد متتبع لقضايا النقد ومذاهبه، وذلك حتى يكون نقده موضوعيا. [21] كما أنه يتحفظ عند نقده لفن القصة لا لشيء إلا لأنها في نظره أخص فنون الأدب وأصعبها على التقييم والنقد الموضوعي، ولذا هي تحتاج إلى ناقد متخصص ومتجرِّد.[22] وهو كان قد اختار ترك نادي الأدب في تلك المرحلة.

3.2 مجال الثقافة العامة:

المراد بها إلمام الناقد ببعض العلوم والمعارف التي لا غنى عنها لباحث متعمِّق ودارس جاد، مثل علم المنطق، حتى يعرف المقدمات وما تؤدي إليها من نتائج. وأن يعرف شيئا غير قليل من علم الجمال وأن يعرف الكثير عن التاريخ العربي والإسلامي والعصر الحديث ويعرف مبادئ علم الاجتماع.[23] وفي هذا المقام غني عن الذكر أن الشيخ حامل لشهادة الدكتوراه في التاريخ والعلوم السياسية، إضافة إلى إتقانه للُّغات الأجنبية، الانجليزية، الفرنسية، الألمانية والفارسية ومبادئ الإسبانية[24]. وهكذا كان امتلاك سعد الله لأهم مقومات الناقد الناجح أرضية مهمة صقلها بمزاولة العملية النقدية فتدرَّب عليها ودرج فيها، إلى أن امتلك مادته وظهرت شخصيته، وكَّون لغته الخاصة التي وصل بها إلينا نحن جمهور القراء. [25]

إن نظرة في دراسات الناقد سعد الله للأدب الجزائري تجعلنا نقف على القضايا الكبرى التي عالجها والتي يظهر فيها حسه النقدي، وشخصيته القوية الصريحة، فكان ممَّا عالجه الباحث سعد الله ما يلي:

3.المواضيع النقدية التي طرقها:

1.3الأدب المكتوب بالفرنسية:

أثار إشكال الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية الكثير من الجدل، وأسال الكثير من الحبر، ومازال يشكل مادة دسمة للنقاش، ولاسيما أنَّ الحكم النهائي على مثل هكذا آداب، والتي اختار أصحابها التعبير بغير لغاتهم الوطنية عن هموم ومشاكل شعوبهم، لم يتم التوصل إليه بعد.

والمواقف إزاء هذا الأدب تنقسم إلى فريقين، «فريق رفض هذا الأدب جملة وتفصيلا، معتبرين أن ذلك تم نتيجة إعجاب شديد من لدن أصحاب هذه الأعمال الأدبية بحضارة الآخر، الحضارة الفرنسية بوجه خاص، والحضارة الغربية بوجه عام، وهم فوق هذا جاهلون بالتاريخ العربي غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية، إذ أنَّى لهم أن يدركوا شيئا من ذلك وهم محرومون من الإلمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي وكنوز حضارته الغنية بمعطياتها الإنسانية اطلاعا حقيقيا خاليا من الشوائب والشرور. »[26] ومنهم من يربط رفضه لهذا الأدب لأسباب تتعلق بطبيعة الأدب نفسه، وما قدمه للحركة الأدبية، وكيف أن هذا الأدب كان دوره باهتا في تحريك الأدب الجزائري، وبالتالي ينفي انتماءه إلى الهوية الجزائرية.

إنه عند بعض الدارسين «غريب في نفسه، ومنفي عن موطنه الذي كتب فيه، ولم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر، فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة»[27]

فإذا ما عدنا لموقف الناقد أبو القاسم سعد الله في هذه القضية وجدناه يسعى لكي ينشد الدقة والموضوعية العلمية، فبدل أن يرحب بهذا الأدب على وجه الإطلاق، أو أن يرفضه رفضا تاما، اختار أن يقف على معايير ومقاييس يتم من خلالها الحكم على هذا الأدب من حيث الانتماء، ومن حيث علاقته بالأدب والقومية. بيَّن ذلك في خضم إجابته عن السؤال التالي: ما هي في نظركم قيمة الأدب المكتوب بالفرنسية في الجزائر؟ فيجيب : «كما تعلمون هناك صنفين من الأدب، الصَّنف الذي كتبه العرب، والصِّنف الَّذي كتبه الفرنسيون، أمَّا الصِّنف الثَّاني فهو في نظري فرنسي وإن كان قد صبغ في الجزائر، أمَّا الصِّنف الثاني فيجب في نظري إخضاعه لمقياس معيَّن، وهو علاقة الأدب بالوطنية والقوميَّة، فإذا قلنا مثلا بأن لغة الشعب الجزائري القومية هي العربيَّة، فمن البديهي أنَّ أدبا مكتوبا بغير هذه اللغة مهما كان قائله، هو أدب غير قومي، أمَّا إذا قلنا بأن اللغة لا تشكل جزءا أساسيا في القوميَّة (وهذا ما لا أعتقد) فيمكن القول بأن هذا الأدب أدب قومي على أساس أنَّ الذين كتبوه ينتمون إلى وطن ما ».[28]

فالشيخ أبو القاسم، يرتكز إلى مقياس القومية بكل ما تتضمنه من عناصر، أبرزها اللغة التي تشكل إشكال الأدب المكتوب بالفرنسية، وهو لا يتساهل في هذا المعيار أبدا، فنجده يفرق بين

القومية والجزائرية، فيمنح صفة الجزائرية لكل أدب كتب على هذه الأرض، ولكنه ينزع عنه صفة القومية متى فقد عنصر اللغة، التي تشكل جزءا مهما من الهيكل الحضاري لأي أمة.[29]

بل إن شيخ المؤرخين يعُدُّ هذا الأدب – بالرغم من اعترافه له بأنه ذو إمكانيات تعبيرية هائلة – أدبا غامض الأهداف. [30]

إن موقف الشيخ سعد الله يظهر فيه الكثير من الصَّرامة، وهو لا يسعى إلى تبرير موقفه بقدر ما يسعى إلى التأكيد على مبدأ القومية، والَّذي يفهم من كلامه أنها شكل من أشكال حفظ الهوية الجزائرية المستقلة، والغير القابلة للذوبان في الآخر. والحق يقال فإن أعلام ما يسمى بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية لا ينكرون هذا التأثر، فقد جاء في رسالة كتبها محمد ديب حديث صريح عن تأثره بالوعاء الفكري الذي تحمله الفرنسية، والذي كان له أثر في كتاباته:« إن قراءتي لـ كتابات "ستنباك" و "كالدويل" هي التي طورت كتابتي فجأة للمرة الأولى؛ فلم يكن من الممكن لكاتب مثلي غير فرنسي أن يكتب باللغة الفرنسية ويكون روائيا، دون الاندماج في التيار الأدبي الفرنسي، فالحياة اليومية و المعاشة التي كنت أرقبها بعيني مثلت مادة أدبية لا تقل أهمية عن أخرى». فاللغة لدى هؤلاء الأدباء إلى جانب أنها وسيلة للتعبير، فهي تعكس روح الشعب وروح الحضارة التي ينتمي إليها الفرد والأمة، وهي بهذا تمثل جزءا من التفكير لا وسيلة للتعبير عنه فحسب.

ومن هنا فإن الشيخ سعد الله لم يضع مقياس القومية من باب التعجيز، وإنكار هذا الأدب وإنما من باب الحرص على حفظ الهوية الجزائرية، ولاسيما أننا ما زلنا إلى يومنا هذا نعاني تبعات استعمار مازالت أثار أقدامه مغروسة في أراضينا.

2.3 شعبية الأدب:

تعد علاقة الأدب بالمجتمع من القضايا النقدية، التي أولى لها النقاد أهمية بالغة، ولعل ذلك راجع لطبيعة هذه العلاقة إذ «للأدب انعكاسات اجتماعية عديدة، وهو في حد ذاته يعد انعكاسًا اجتماعيا حتى في أكثر موضوعاته خصوصية. فهو نشاط اجتماعي قبل أن يكون نشاطًا لغويًا. حتى اللغة تفسر من منظور اجتماعي قبل أن تفسر من منظور آخر».[31]

وعلى مدى التاريخ الأدبي كله لم ينكر أحد العلاقة بين الأدب والمجتمع، فمن أقدم صورها في «الشعر القصصي عند اليونان، صورة الإلياذة، فسنجدها لا تتغنى بعواطف فردية، وإنما تتغنى بعواطف الجماعة اليونانية لعصرها، مصورة حروبها بطرواده ومن استبسلوا فيها من الأبطال، ومن هنا نشأ القول بأن ناظمها ليس هو هوميروس وحده»[32] . وفي العصر الجاهلي كان الشعر العربي مرآة عصره، وصورة من حياة العربي وباديته، أو كما يقال: كان ديوان العرب، أو سجل العرب الذي يصور حياتهم، ويحكى عاداتهم وتقاليدهم، ويعكس أحوال معيشتهم في صدق تام. ولنا أن نتوقف عند شاعر مثل " عمرو بن كلثوم " الذي دخل التاريخ بقصيدة واحدة، [33]

تناقلتها الألسنة، وغنَّتها القوافل جيئة وذهابا، وأكثر بنو قبيلته " تغلب " من إنشادها جيلاً بعد جيل حتى قال فيهم الشاعر:

ألهَى بني تغلبَ عنْ كلِّ مكرُمَةٍ * قَصيدةٌ قالها عمرو بن كُلثُومِ**

يفاخرون بها مذ كان أولهم * يا للرجالِ لشعرٍ غيرِ مسئومِ**[34]

وهكذا يظهر إن قوة الصلة بين الأدب والمجتمع قديمة وفطرية بما لا يدع مجالا للخلاف فيه، إلا أن الصراع الفكري والفلسفي في العصر الحديث، أنتج مواقف مخالفة، تنتصر لنمط من الأدب اختار أصحابه الهروب من المجتمع.

ولعل هذا الاتجاه الهروبي قد تبنته فيها بعد تيارات حداثية في الأدب والفن رأت أن مهمة الأديب ليست تعبير عن شيء، لا عن الشخصية، ولا عن اللاشعور، ولا عن ضروب الصراع بين طبقات المجتمع، ولا عن أي شيء يتصل بالجماعة من سياسة وأخلاق، أو دين أو إلحاد، أو بالمعنى فصل هذا النموذج بين الأدب والسياسة، والإيدلوجيا و بالتالي بينه وبين المجتمع، وأضحى الشعر بالنسبة لهذا النموذج معبرًا عن هروب الذات المستمر من الواقع، بل هو إذابة وإفناء مستمر للذات باستمرار هروبها إلى عالم علوي تتسامى فيه عن الواقع تمامًا كما يتبخر الماء من الأرض إلى أفق علوي فوقها، وأصبح عالم الذات بذلك خاصًا بها يمكن للشاعر أن يمارس منه السخرية والتهكم على الواقع، متجاوزًا بذلك عن أي دور نبوئي أو رسولي، وقد تسامى إلى حد كبير عن هذا الواقع الشاخص فوق الأرض الخراب أو الأرض اليباب كما هو الحال في قصيدة ت. س . إليوت التي تحمل العنوان ذاته.[35]

ومن هذين الموقفين وغيرهما اتخذ الشيخ سعد الله انتماءه وحدَّد موقفه بوضوح حين قرَّر أنَّ الأدب عنده هو ما كان صورة لمجتمعه، والأديب الَّذي يتولَّى الأدب مهمة بثِّ هذيانه وهواجسه، لم يرتق بعد في نظر أبي القاسم إلى مستوى الأديب الحقيقي.[36]

وعلى هذا الأساس أعلن ولاءه لطائفة من الشعراء على حساب طائفة أخرى لا لشيء إلا لمعايشتهم أحداث أوطانهم وأمال وآلام شعوبهم يقول سعد الله «نحن نحب نزار قباني حدَّ الإعجاب ومحمد العيد والشابي وسليمان العيسى وغيرهم ممن عرفوا الطريق إلى قلب الشعب أكثر مما نحب السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور .... وصحيح أن الأستاذ السيَّاب أكثر تنوعا من حيث التناول إلا أنه – فيما يبدو- لا يفكر في الجيل القارئ، وإنما يستمع إلى دقات الأجراس في واعيته هو، من هنا كانت صوره متداخلة في أغلب الأحيان، وموسيقاه ترتج أكثر مما تنساب ».[37]

إن موقف سعد الله، قريب جدا مما يدعو إليه النقد الماركسي أو ما يسمى " الواقعية الاشتراكية " من مبدأ الانعكاس في الأدب، إذ يعدُّ دعاة هذا المبدأ العمل الأدبي مجرد مرآة عليها أن

تعكس الواقع الأدبي وقضاياه. وكان أول من ألحَّ على هذا المفهوم من نقاد الأدب الماركسيين جدانوف (Jdanov) (وبليخاتوف) (Plekhanov)) ففي أعمالهما سنجد إلحاحًا على ضرورة أن يعكس الأدب الواقع الاجتماعي وأن يلتزم بقضايا الطبقات، وخاصة الطبقة العاملة)، وأن يكون قادرًا على أن يدرك صيرورة الصراع الاجتماعي، ويجسده في عمله بوسائله الفنية .[38]

لذلك اعتبر سعد الله مشكلة الأدب في الجزائر أنه لم يكن معايشا لمشاكلنا الذهنية والعاطفية، [39] ولذلك حَمَل على أدباء الجزائر حين وصفهم بأنهم كبخور الأولياء مزيج من عبق ودخان[40]. فأدبهم لا يمكن أن يحفظ لنفسه البقاء لأن أصحابه لم يمتلكوا الجرأة ليكونوا مرآة الشعب. ولأن الشيخ سعد الله كان يدرك أهمية الشعر وعظيم تأثيره، حرص على أن يكون شعره شكلا من أشكال الكفاح يقول «أنظم الشعر ليكون رصاصا يخترق صدر العدو لا لوحة فنيَّة في دار الآثار». [41]

إن مسألة تعبير الأدب عن هموم المجتمع كانت مسألة بديهية في النقد الاشتراكي، أسلمت إلى بديهة أخرى تتعدى الأدب إلى الأديب نفسه، هذه البديهة الأخرى عرفت بـ " الالتزام " وهو في عرف النقاد: «ذلك الأديب الذي لا يُطلب منه في أدبه أن يعكس علاقات مجتمعه وأوضاعه فحسب، بل يطلب منه أن يشارك في تكييف مجتمعه، بحيث يصبح جزءًا لا يتجزأ من كل ما يجرى فيه من مشاكل وقضايا ومعارك، بحيث يذود عنه حين يطلب منه الذيادة، فينبري للدفاع عنه بقلمه».[42] وللناقد سعد الله موقفه من قضية الالتزام الأدبي، إذ يعده مسألة أخلاقية مضمونها أن يمارس الأديب الكتابة دون ضغط، وأن يلتزم بموقف نتيجة لحريَّة ذاتية واقتناع شخصي، مثال ذلك عنده محمد العيد، فقد التزم بخط معيَّن عبَّر عنه في إنتاجه ....[43]

والأديب بهذا المعنى صاحب رسالة في التنبيه، والشرح والتوجيه، لا يسمح لشاعريته أن تحيد عنها أو لقلمه أن يتجاوزها. أو هو في الأقل مشارك لأصحاب تلك المبادئ والدعوات الإصلاحيَّة في نشر دعواتهم والتمكين لها في القلوب والعقول حتى لا يحسَّ النَّاس غيرها ولا يسمعون إلا أصداءها.[44]

وإذا قيَّد الأديب نفسه بتلك الأهداف، وقصر إنتاجه عليها، فهو ((الأديب الملتزم)) أما الأديب الَّذي لا يتقيد بتلك الأهداف، بل يعبر عن ذاتيته وعن تجاربه وعواطفه وانفعالاته، متحررا من سائر القيود الَّتي تحد من حريَّته في التعبير عن مشاعره، فهو عندهم ((أديب غير ملتزم)).[45]

3.3 المنهج التاريخي في دراسة الأدب :

قدَّم سعد الله الناقد إضاءات مهمة لتاريخ الأدب الجزائري الحديث، لقد بحث ونقَّب عن الأدب الجزائري منذ أواخر القرن التاسع عشر، ثم إنه أخضع المادة الأدبية التي توفرت بين يديه

إلى ميزان النقد، ليخرج بما يشكل إرهاصات لكتابة تاريخ الأدب الجزائري الحديث، لقد ظهر شغف الشيخ سعد الله بالتاريخ في كل مجال طرقه، فأرَّخ للأدب والنقد العربيين.

لقد اعتمد شيخ المؤرخين على المنهج التاريخي في دراسة الأدب، فقسَّم الأدب إلى فترات، كل فترة تشغل مساحة زمنية معينة، ولكل فترة خصائصها واتجاهها البارز وأدباءها، فوضع أحمد كاتب الغزالي، عاشور حنفي وغيرهما ضمن أعلام التيار التقليدي في كتابة الأدب. [46] وجعل عبد الكريم العقون، والأخضر السائحي، والطاهر بوشوشي أعلاما للتيار الرومنتيكي في الجزائر. [47]

إنه يستثمر بداية المنهج التاريخي فيعمل على تتبع الحوادث التاريخية ومدى تأثيرها في الشعر. [48] وهكذا يسعى سعد الله في تتبع النصوص الأدبية وأصحابها ضمن خط سير تاريخي، بدأه بأواخر القرن التاسع عشر، وقد استطاع الوقوف على أسماء مهمة وتقسيمات علمية بالرغم من صعوبة التأريخ لأدب تلك الفترة بسبب اجتهاد المستعمر في محاولة طمس كل معالم الحضارة العربية الإسلامية، والتي ظلَّ الشيخ ينافح عنها، وكانت هاجسه من وراء دراسته وبحثه في تاريخ الأدب العربي في الجزائر.

على أن الشيخ سعد الله لا يقف عند مسألة التأريخ للأدب إذ سرعان ما نجد حسه وممارسته النقدية تلعبان دورا بارزا في تصنيفه للأدب الجزائري، وسعيا منه لتتبع الحركة النقدية، والوقوف على عوامل تطور أو تراجع الأدب العربي الجزائري، وذلك إيمانا منه بأنَّ النقد والأدب صنوان، والنقد يوجه الأدب ويطوِّره، إنه بمثابة الضغط الذي يسير بالأدب إلى الأمام قدما ؛ دليل ذلك أن حركة النقد نجحت في توجيه الكتاب، فدخلنا باب القصة العربية، وحاولنا كتابة المسرحية الناجحة، وظهر عندنا أدب الخاطرة وتطورت في كتاباتنا دراسة الشخصيات، وفي المقابل ركدت حركة الشعر، لا لشيء إلا لانعدام ناقد شعري متمكن يخالف نقاد المرحلة السابقة في العقيدة. [49]

4. . المقاييس النقدية عند الأستاذ سعد الله :

تختلف فنون الأدب بين شعر ونثر يتخذ نماذج متعددة، ولكل شكل من أشكال الإبداع الأدبي منهجه ولغته وخصائصه، التي تجعل من اتخاذ نمط واحد في قراءتها، عبثا وجهدا ضائعا بلا طائل، إذ ينبغي التعامل مع النصوص الأدبية وفق معايير يحددها الناقد وتحترم خصوصية العمل الأدبي، وذلك ما لاحظناه حين تتبعنا منهج الأستاذ سعد الله في قراءة الأدب، فعند قراءته للقصة، يحرص على تتبع الجودة والتمكن من تقنية القص، ثم مدى نجاح القاص في معالجة القضية التي يعرضها معالجة هادفة دقيقة[50]. والشعر عنده ينبغي أن يتطور فيواكب عواطف الناس وظروفهم، والتطور هنا يشمل شكل القصيد وموسيقاه، ويشمل موضوعاته وقضاياه. [51] أما المسرح فينبغي أن يواكب المرحلة التاريخية ويعبر عن مشاعر أهلها[52]. وهكذا أدرك سعد الله أن

لكل جنس أدبي بناءه الخاص الَّذي إذا ظهر فيه خلل عُدَّ ذلك نقطة ضعف في العمل، من هنا كان لكل مسرحية – على سبيل المثال - إطار عام ومغزى وحكاية.[53] على أن هنالك مقاييس تشترك فيها النصوص على اختلافها أهمها، مقياس تحقيق المنفعة والبناء من خلال مضمون النص، فيرفض الفكرة الخاطئة الهدَّامة المضِّرة للمعنى الهدَّام [54]. فينبغي أن يكون لكل عمل أدبي رسالة معينة، وعلى الأديب تقع مسؤولية جعل القارئ يدرك المغزى من عمله.

ثم إنَّ الناقد الموضوعي لا ينبغي له في رأي سعد الله أن يهمل نفسية صاحب النَّص إذ هي مفتاح من مفاتيح الإبداع الأدبي، يقول شيخ المؤرخين «نفسية المؤلف هي العقدة التي إذا حلت استطعنا أن نستكشف من خلالها موضوعات الكتاب».[55] هذه بعض من المقاييس المهمة التي يضعها الباحث سعد الله بين يدي كل ناقد يسعى إلى تقديم قراءة جيدة للعمل الإبداعي تساهم في بناءه وفي وضع صاحبه على الطريق الصحيح.

5. خاتمة:

إذن هذه بعض القضايا الكبرى التي تشكل جزءا من الممارسة النقدية للعلامة أبو القاسم سعد الله، وهي تعكس الكثير من الوعي والإدراك لماهية الأدب ووظيفته، والمعايير التي يُنتج على أساسها، ثم هو في كل أراءه منافح عن العروبة، والقيم الإسلامية، والدعوة إلى التحرر وكسر القيود، ورأى أن الأدب بإمكانه أن يكون جبهة من جبهات القتال تضاهي الجبهة العسكرية، إن لم تكن ذات امتداد واسع. إلا أنه توقف عن ممارسة الأدب، ويمَّم وجهه شطر التاريخ، وأحسب أن قراره ذاك جاء نتيجة عدة عوامل منها، أنه لم يجد ضالته فيما يقرأ ولم يجد أذانا مصغية واعية لما يكتب وإلى ما يوجه.

لقد أ درك الشيخ سعد الله، أنه ولغاية 1960 لم نكن نملك أدبا ناضجا يساير ولا يحاكي الأدب العربي المعاصر، فما بالك الآداب العالمية «الأدب كفن ما يزال متخلفا من حيث الكم والموضوع والأسلوب ».[56]

مراجع البحث وإحالاته:

1- علي جواد الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1979، ط1، ص345

2- نفسه، ص344.

3- نفسه، الصفحة نفسها.

4- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، الجزائر، ص 121

5- نفسه، ص 122

6- نفسه، ص 120.

7- نفسه، ص 157

8-عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، ص08

9 - هاشم صانع مناع، بدايات النقد الأدبي، ص94، وينظر: الآمدي، الموازنة بين الطائيين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، 1944، ص372.

10- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة، القاهرة، 1979، ص:88/82

11- هاشم مناع بدايات النقد الأدبي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1ص:96

12 - تجارب في الأدب والرحلة، ص 135

13 - نفسه، ص 130

14- هاشم مناع، بدايات في النقد الأدبي، ص101.

15-الجاحظ: البيان والتبيين تح عبد السلام هارون تح عبد السلام هارون مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 1985 ص24.

16 - عبد الكريم شبرو، التجربة الشعرية عند أبو القاسم سعد الله، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة محمد خيضر، باتنة، 2007، ص50

17 - تجارب في أدب الرحلة، ص 118

18-ينظر مصطفى عبد الرحمن إبراهيم في النقد الأدبي القديم عند العرب مكة للطباعة، 1998، ص15.

19 -أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1988، ص 184.

20 - نفسه، ص 50

21 - تجارب في الأدب والرحلة، ص 130

22 - نفسه، ص 136

23- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص:16.

24 - التجربة الشعرية عند أبو القاسم، ص 50

25- ينظر بتصرف، مقدمة في النقد الأدبي ص 344

26 - عبد الله لركيبي - القصة الجزائرية القصيرة. - الجزائر، م.و.ك، ط.1، 1983، ص.249-273.

27 -- واسيني، الأعرج. - اتجاهات الرواية العربية في الجزائر. - ط.1، المؤسسة الوطنية للكتاب.

28 - تجارب في الأدب والرحلة، ص 176

29 - ينظر: نفسه، الصفحة نفسها

30 - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط 5، 2007، ص 28

31- أحمد فراج . (الثقافة والعولمة / صراع الهويات والتحديات) الهيئة العامة لقصور الثقافة . كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الدلتا سنة 2003 . ص 96 .

32- شوقي ضيف . المدخل الاجتماعي للأدب . القاهرة، دار المعارف . ط 8 ص 96 .

33- هذا ما ذهب إليه الكثيرون من دارسي الأدب ومؤرخيه، لكنما يذهب البعض إلى أن له شعرًا ضاع مع ما ضاع من تراث شعراء كثيرين غيره.

34 - الشعر للموج التغلبي، ينظر : البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي . القاهرة، ص181/3.

35- ينظر: عبد الجواد الخفاجي، الأدب وهموم المجتمع، رابطة أدباء الشام تشرين، 2007، موقع www.odabashame.net

36- ينظر: تجارب في أدب الرحلة ص 167 وغيرها.

37- ينظر: تجارب في أدب الرحلة، ص163.

38- . سيد البحراوي . المدخل الاجتماعي للأدب، القاهرة، دار الثقافة العربية سنة 2001، ص 29.

39 - نفسه، ص80

40- تجارب في أدب الرحلة، ص 121

41- تجارب في أدب الرحلة، ص164

42- شوقي ضيف . مرجع سابق ص . 103

43- تجارب في أدب الرحلة، ص177.

44- بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض، 1984، ص15

45- نفسه، ص15

46 - دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 27

47 - نفسه، ص28

48 - نفسه ص 36

49 - نفسه، ص83

50 - ينظر: تجارب قي أدب الرحلة، ص118 وما بعدها.

51- نفسه، ص157

52- ينظر: تجارب في أدب الرحلة، ص 130،

53 - ينظر: نفسه، ص 130،

54 - تجارب في أدب الرحلة، ص 138

55 - نفسه، ص120

56 - نفسه، ص 79

المصادر والمراجع:

1- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1988.

2- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، الجزائر.

3- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط 5، 2007.

4- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة، القاهرة، 1979، ص:88/82

5- الآمدي، الموازنة بين الطائيين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، 1944، ص372.

6- بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض، 1984.

7- البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي. القاهرة، دط، دت.

8- الجاحظ: البيان والتبيين تح عبد السلام هارون تح عبد السلام هارون مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 1985 .

9- سيد البحراوي. المدخل الاجتماعي للأدب، القاهرة، دار الثقافة العربية سنة 2001.

10-شوقي ضيف. المدخل الاجتماعي للأدب. القاهرة، دار المعارف. ط 8 .

11-عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، 1972.

12-عبد الله الركيبي - القصة الجزائرية القصيرة. - الجزائر، م.و.ك، ط.1، 1983.

13-علي جواد الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1979، ط1.

14-مصطفى عبد الرحمن إبراهيم في النقد الأدبي القديم عند العرب مكة للطباعة، 1998.

15-هاشم مناع بدايات النقد الأدبي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1ص:96

16-واسيني، الأعرج. - اتجاهات الرواية العربية في الجزائر. - ط.1، المؤسسة الوطنية للكتاب.1

17-عبد الكريم شبرو، التجربة الشعرية عند أبو القاسم سعد الله، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة محمد خيضر، باتنة، 2007.

18-أحمد فراج . (الثقافة والعولمة / صراع الهويات والتحديات) الهيئة العامة لقصور الثقافة . كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الدلتا سنة 2003 ..

19-عبد الجواد الخفاجي، الأدب وهموم المجتمع، رابطة أدباء الشام تشرين، 2007، موقع www.odabashame.net